وثعلب من عامة الخاصة ومع ذلك إذا تركوا أنفسهم على سجيتها يتكلمون لغة الناس !!! فكيف كان الأمر بين الناس العاديين أنفسهم !! إن هذا المظهر يدل أيضا على مدى التغير الذى حدث فى هذا العصر ، لاستخدام المستويين من الفصحى واللهجات .

ثالثاً : يدل على هذا التغير أيضا النشاط العلمى العظيم الذى حدث فى هذه الفترة ، واتجاهه إلى المبالغة فى التصون عن لغة عامة الناس ، سواء أكان ذلك بالرجوع للقديم ورفض ما عداه ، أو الانصراف إلى الأعراب فى البادية ، أو جهد اللغويين فى جمع اللغة — كما فعل الخليل بن أحمد — أو تنقية الفصحى مما علق بها من دخيل أو لحن ، وقد بدأ ذلك الكسائى بكتابه « ما تلحن فيه العامة » فإن كل ذلك يدل على ما نحن بصدده من أن الفصحى أصبحت لغة الصنعة لا الفطرة ، ولغة الكتابة لا النطق ، وهى فى حاجة إلى الدعم والمساندة والدفاع عنها ضد هجوم مقتدر من كلام العوام الذى يسنده الاستعمال وانتشاره بين الناس .

ذلك كله عن الحضر ، فماذا كان الأمر فى البادية فى ذلك الوقت ؟ ؟

يبدو أن البادية ظلت محافظة على ما كان عليه الأمر من قبل من تجاور اللهجات واللغة المشتركة العامة فيها مع استعمال كل منهما فى مجاله الخاص ، وظهر ذلك فى الروايات الكثيرة المتناثرة عن اللهجات فى كتب النحو واللغة ، إذ روى للعلماء من ذلك ظواهر اللهجات التى سمعوها فى البادية ، وهى من الكثرة إلى الحد الذى دفع الفراء إلى أن يقول :

واعلم أن كثيرا مما نهيتك عن الكلام به من شاذ اللغات ومستكره الكلام لو توسعت بإجازته ، لرخصت لك أن تقول (رأيت رجلان) ولقلت (أردت عن تقول ذاك) ولكن وضعنا ما يتكلم به أهل الحجاز ،